

المقاهى وأثرها في المجتمع المصري

للأستاذ أحمد حلمي على

أستاذ المواد الاجتماعية بالمدارس الثانوية

يعبرنا الكثيرون من الأجانب بكثرة ما في مصر من مقاه، ويذهب بعضهم إلى أنها سبب من الأسباب الرئيسية في قلة الانسجام والتعاطف والترابط بين أعضاء الأسرة المصرية ، وأنها علة ما يشوب المجتمع المصري من تراخ وتواكل وشحوب وإعراض عن العلوم والفنون والآداب، هذا إلى ما في الإقبال عليها من مضیعة للوقت والجهد والمال .

وفي الحق إن المقاهى لم تلق في مملكة من الممالك مثل ما تلقاه في مصر من رواج ، بل ليس في العالم بلد انتشرت فيه انتشارها في مصر، وأثرت في أهله تأثيرها في أهل مصر، وهي الآن آخذة في الازدياد في المدن والمراكز والقرى، وقد يزيد عددها في ميدان واحد من ميادين القاهرة على العشرة كما هو الحال في ميدان السيدة زينب مثلا .

وعلى القهوة يقبل الطالب بعد الانتهاء من مدرسته، والموظف بعد أن يطل على بيته، والعامل بعد أن يخلع عنه ملابس العمل ، والتاجر والزارع والغني والفقير والصغير والكبير ليقتضوا كل ليلة ساعات في لعب النرد أو غيره أو في ثرثرة ضررها أكثر من نفعها والكل لاه عن واجبه وعن بيته وولده ، بل عن نفسه وما تحتاج إليه من تنقيف وتهذيب .

البيت مطعم أو فندق يزوره صاحبه لما ليلق نظرة سريعة على الزوج والولد، وقد يكون هذان في زيارة عقيمة أو في سبات عميق، فلا اتصال ولا تخاطم بين الأسرة وربها، ولا اهتمام بالبيت وشئونه وما يجب أن يسوده من محبة وألفة وصفاء ، وأن يتوافر فيه من كتب ومجلات ومذياع وصور فنية ، ووسائل للتساية والترفيه ، فهل من عجب بعد ذلك أن تسأم الزوجة حياة العزلة التي تحياها حبيسة بيتها ، وأن يفسد الأبناء وينهار البيت على صاحبه وهو في القهوة لاه يقتل الوقت أو على الأضح يقتل نفسه وذويه ! ! . . .

إذا قضى الرجل أوقات فراغه في القهوة فتى يبنى بصحته ورياضة بدنه ؟ ومتى يزامل زوجه ويشرف على تربية أولاده وتنقيفهم ؟ ومتى يدبر شئونه ويزيد في معلوماته ويقرا ويطالع ؟

كثيرون منا يجهلون أشياء لا يفتر الجهل بها، وقليلون هم الذين يستطيعون أن يفاحروا بثقافة عالية واطلاع واسع في الفنون والآداب . حقا لقد كثرت حملة الشهادات ولكن الشهادات ليست هي كل شيء، وإنما هي مجرد سلم أو باب يؤدي إلى مساحات رحبة زاخرة بالجهود الانسانية المتوامة .

قليلون هم الذين يستطيعون أن يميزوا أنواع الأشجار المختلفة المنتشرة في منزهاتنا ، وأقل منهم من يعرف الجارونيا أو الجارديزيا أو الداليا أو الأراولة أو السناريا أو حتى الترجس والقرنفل مع أننا شعب زراعي ، الزراعة قوام حياته ، ومصدر ثروته وهدفه فيما ينشد من رقى وإصلاح. نمر بآيات من الجمال الطبيعي والفني الرائع فلا نحس بها ولا نفهم منها شيئا، ولا نقف لحظة نمنع النظر فيما يشبع في بلادنا وفي وادينا من جمال يقدره الأجنبي قدره ويسعى إليه من أقصى الأرض ، مأخوذاً بسحره ، دهشاً بكل ما تقع عليه عينه من عجائب مصر القديمة والحديثة .

وقليلون جدا هم الذين ضربوا بسهم وافر في الفنون والآداب مع أن بين ظهرانينا من الشبان الأجانب من لو قارناهم بشبابنا لتبين الفرق شامعا ولأدركنا مدى ما ينقصنا لترتفع إلى مستواهم .

ترى الشاب الفرنسي مثلا قد قرأ في أوقات فراغه مؤلفات أئمة الأدب الأوربي ، وراه يعرف رامبران وميكل انجيلو وباخ وموزار وبتوفن وفردى وغيرهم من أبطال الرسم والتصوير والموسيقا. هذا إلى الممامه العجيب بالكثير مما يتحمل بالأوبرا والمسرح والسياسة والاجتماع ، ثم تراه فوق ذلك متميزا بشخصية خاصة ، وميول خاصة ، وآراء خاصة، له نظريات في الحياة وله فلسفته ، وله مبادئ يستريح إليها ، كما أن له مثله العليا، يتهدى بهديها ويرسم خطاها .

أما نحن فلم نترك لنا القهوة وقتنا نستكمل فيه ثقافتنا ، طفت على أوقات فراغنا فخرمتنا الاستمتاع بكل ما هو طريف سواء في الأدب أو الفن . لذلك يشكو أدباؤنا وكاتبنا ندرة القراءة ، ويندب أهل الفن من ممثلين ومطربين ورسامين ومصورين حظهم ، وتعج المقاهي بالألوف ممن يقتلون الوقت في لهو ومزاح كأننا الصمركله : ديوان في الصباح، وسهر الليالي بين الخلان والأقداح . وبما أن العلوم والفنون هي أصدق مقياس لرقى الأمم ، فلن نصل إلى ما نبتغيه لبلادنا من سؤدد ومجد إلا أن يتغير الحال بغير الحال .

وجدير بنا أن نسرع إلى معالجة هذا الداء قبل أن يستفحل شره ... فليتنا أن ننظم أوقات فراغنا وأن نستثمرها فيما يعود علينا وعلى ذويتنا بالنفع، وأن تقبل على الأندية الرياضية فنقوى اجسامنا، وعلى الحقول والمتنزهات العامة فنستمتع، ومعنا أولادنا واخواننا، بالهواء النقي الخالص

وبجمال الطبيعة وسحرها ، ثم زور المكتبات العامة فتزود بالمعلومات الشائقة . وتهذب طباعتنا ، ويرتفع مستوانا الخلقى والثقافى . كل ذلك بعد أن نكون قد نظمنا بيوتنا — كل على قدر طاقته — وأعدنا فيها وسائل الترفية والتنقيف ، وجعلناها صالحة لاستقبال الرفقاء والأصدقاء ، وليس يضيرنا أن نكشف للناس عن رقة حالنا أو ذقرونا وإنما الذى يضيرنا أن نترك البيت فى حاجة ماسة الى عنايتنا واهتمامنا والى كل ما نتقاضاه من أجر ، ونسحق فى سخاء على ملاحينا ومقاهينا ، وقد يندفع البعض فى حب الظهور الكاذب القاصم ، الى درجة تدعو الى العجب ، أو على الأصح الى السخرية .

إننا إن نظمنا حياتنا وبيتنا وفراغتنا ولحونا نتهض بالأمره نهضة لاشك فيها ، وتتوثق روابط المحبة بين الزوج وزوجه ، وبين الأب وبنه ، ويزداد تعاونهم على الحياة ، ويسودهم البشر والسرور ، فيتهافت الجميع على البيت حيث ترفرف السعادة والهناء ، وحيث يجد كل عضوا من أعضاء الأسرة العطف والحنان والتسليه وغذاء النفس والروح ، وعندئذ يرقى المجتمع المصرى وتتوطد دعائمه على أرفع الأسس وأسماحا ، وتتوافر لدينا طبقة عالية من الرجال — نحن فى ميسر الحاجة اليهم — يتميزون بشجاعة الرأى والقلب ، ويدركون وعورة الطريق ويكافحون بصبر وجلد زواجع الحياة ، ويتبادلون فى مهارة قيادة السفينة الى مرفئها الأمين .

ولعل وزارة الشؤون الاجتماعية تولى مشكاة المقاهى نصيبا من عنايتها ، فلا تقصر جهودها على محاربة الحانات ودور الميسر ، بل تضع من القيود التشريعية أو المالية ما يخفف من انتشار هذه المقاهى ، بحيث لا يتبقى منها إلا القليل الضرورى ، اللازم للزلاء والأجانب ، وأرباب المصالح العاجلة ، وفى الوقت نفسه تشجع على فتح أندية رياضية وثقافية وتعاونية ، ومكتبات عامة فى كل قسم من أقسام القاهرة والاسكندرية ، وفى كل مديرية أو مركز من مراكز المملكة المصرية كما هو الحال فى سائر الدول المتحدية .

وإنها لخطوة موفقة تلك التى خطتها الوزارة فى سبيل إنشاء الوحدات الاجتماعية والعلاجية ومراكز النشاط الاجتماعى فى المدن والقرى ، كما يسرنا كثيرا أن نشير مغتربين إلى ما رصدته الوزارة فى ميزانية هذا العام من مال ولو قليل لينفق فى تأسيس الأندية ومساكن العمال وغيرها من وجوه الإصلاح الاجتماعى الأخرى .

والأمل كبير فى أن يقضى التعليم عند تعميمه على نطق الضعف فى مجتمعنا المصرى ، وأن يتضاءل شأن المقاهى فى مصر ، تلك الدور التى تشغل الناس عن أنفسهم وأزواجهم وعن زينة الحياة الدنيا والآخرة .